إلَيْكَ رَسُولَ اللّهِ أَهْدِي مَدَائِحي فَتَكْسِبُ من رَيَّاكَ نَشْرًا مُؤَرَّجَا
وتُلْبِسُهَا أَوْصَافُكَ الزُّهْرُ حُلَّةَ الـ ـبَهَاءِ ورَوْضًا من حِلاكَ مُدَبَّجَا
أَسَوْتَ بِما بَيَّنْتَ داءَ قُلُوبِنا كما كُنْتَ تَأسُو قَبْلُ أَوْسًا وخَزْرَجَا
وكُنْتَ نَبِيا قَبْلَ آدَمَ مُرْتَجَى لِتَفْتَحَ بَابًا لِلْهِدَايَةِ مُرْتَجَا [1]

ونحن نراه في البيت الأخير يُشير إلى الحديث النَّبويّ : « كنتُ نبيا و آدمُ بين الماء والطّين[2] » ، ثم يناجي الرَّسول ﷺ مُسْتَشْفعًا به فيقول :

أجِرْنِي فقد أصْبَحْتُ في زَمَنٍ له عُرَامٌ لأهْل الحِلْم أصْبَحَ مُزْعِجَا
ولستُ أَرَى خِلاًّ مُعِينًا أَبُثُّهُ شُجوني فما أَزْدَادُ إلا تَوَهُّجَا
لأنَّكَ عِنْدَ اللّهِ أَنْجَحُ شافع لِدَفْع المُلِمَّاتِ الشَّدائِدِ تُرْتَجَى[3]

وفي قصيدة أخرى يتَجلَّى دافعٌ نَفْسِيٌّ للإكثار من هذه المدائح التي عبَّر الشُّعراء فيها عما كانت تقاسيه الأمَّة الإسلاميَّة من كوارث ، ما بين هجماتٍ شرِسَة أقبلت عليها من الغرب والشَّرق ؛ من الصَّليبيِّين من ناحية ومن التَّتار من ناحيةٍ أخرى ، ثم من فساد كثير من الحكومات وظُلمِها للرَّعِيَّة ، فالصَّرصَرِيّ لا يرى ملاذًا له وللأمَّة من تلك الأهوال إلا في التَّوسُّل إلى الرَّسول ، يَبُثُّه تلك الآلام :

يا خَيْرَ من بَرَأَ المُهَيْمِنُ وارْتَضَى لِبَلاغ حُجَّتِهِ التي لا تُقْطَعُ
أَشْكو إليكَ – وأنتَ تَعلَمُ – فِتْنَةً كادَتْ لها الصُّمُّ الصِّلابُ تَصَدَّعُ

(١) الرَّيَّا : الرائحة الطيبة ، والنَّشْر : الريح الطيبة أو الريح عموماً . يقال له نَشْر طيب ، والمُؤَرَّج : المُعَطَّر والمُطَيَّب، والزُّهْر : جمع أَزْهر و زهراء ، وهو النَّيِّر والصافي اللون ، أو المشرق الوجه ، والمُدَبَّج : المزيَّن بالدِّيباج ، وهو الثوب من الحرير الخالص ، و أَسَوْت : داوَيْت ، مُرْتَج : مغلق .

(٢) صحيح البخاري ، أدب : ١١٩ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة : ٢٨ ، مسند أحمد بن حنبل ، ٤ رقم ٤٠٦ .

(٣) العُرام هنا : الشَّراسة والأذى . يقال « به شِرَّة وعُرام » أي شراسة وأذى ، والمُلِمّات : جمع مُلِمَّة وهي النّازلة الشديدة من نوازل الدنيا .